العراق ـ سياقات الوحدة والانقسام (1)

ما عالجه حنا بطاطو في حديثه عن الطبقات الاجتماعية العراقية كظاهرة اكاديمية تحول لاحقا لأيديولوجية

محنة خلق القرآن ساهمت في ولادة مصطلح اهل السنة والجماعة وعقيدة أحمد بن حنبل أول نص متكامل عنه

بشير موسى نافع*

تنشر «القدس العربي» مقتطفات من كتاب «العراق سياقات الوحدة والانقسام» للباحث والاكاديمي بشير موسى نافع، والذي يحاول فيه تحليل البنية الاجتماعية والثقافية والطائفية في العراق، ورؤية السنة والشيعة لبعضهما البعض.

■ راج خلال العقدين الأخيرين من القرن العشرين تصور مفاده أن الشعب العراقي هو خليط من الشعوب والطوائف المنقسمة على نفسها، وأن العراق هو كيان ولد بقوة الإمبراطورية البريطانية ولا يمكن الحفاظ عليه إلا بالعنف والقهر. النموذج الأكثر شيوعاً للعراق أنه ليس أكثر من ثلاثة كيانات متنافرة: شمال كردي، وسط عربي ـ سني، وجنوب عربي ـ شيعي، تخالطه عناصر شيعية إيرانية، حكمتها طوال القرن العشرين أقلية عربية سنية من خلال مجموعة من المصالح، وأداة الجيش، وأجهزة الأمن، وشبكة من المعتقلات والسجون. وقد أعطي هذا النموذج قدراً كبيراً من التسويغ عشية الغزو الأمريكي للعراق واحتلاله وإسقاط نظام حكمه، لا سيما بعدما أعلنت الإدارة الأمريكية للعراق المحتل عن التوصل إلى اتفاق مع قطاع من القوى السياسية العراقية لإقامة مجلس حكم انتقالي، وزعت مقاعده على أساس انقسام العراقيين إلى عرب وأكراد وشيعة وسنة.

إن النص المؤسس للعراق المنقسم على ذاته في الحقل الأكاديمي هو بامتياز كتاب حنا بطاطو «الطبقات الاجتماعية القديمة والحركات الثورية في العراق». لم يكن هدف بطاطو هو بحث مسألة الهويات في العراق أو التكوين العرقي والطائفي للشعب العراقي، بل قراءة البنية الاجتماعية والسياسية من خلال دراسة الطبقات والقوى الرئيسة التي صنعت تاريخ العراق السياسي بعد إقامة الدولة الحديثة في 1921، لا سيما الحزب الشيوعي العراقي. ولكن مقاربة بطاطو وقعت تحت تأثير تقارير الإدارة البريطانية في العراق وكتابات الرجال الرئيسيين لتلك الإدارة (التي شكلت جزءاً كبيراً من مصادره)، خاصة أولئك الذين وجدوا أنفسهم في مواجهة ثورة العشرين. من ناحية أخرى، فإن المنهج الذي اتبعه بطاطو في بناء اطروحته قد استعار الكثير من منهج التحليل الماركسي؛ وقد بدا لبطاطو ان مجتمع الجنوب «الشيعي» يقدم أدلة قوية على سلامة التحليل. أراد بطاطو عبر كتابه كله أن يؤسس لدور الصراع الطبقي في صناعة السياسة العراقية وفي فهم العراق الحديث. وقد وجد بطاطو التباين الطبقي في أكثر مستوياته حدة في جنوب العراق، وفي التجمعات الجنوبية المهاجرة إلى العاصمة بغداد. كان عمل بطاطو، الذي استغرق سنوات طويلة من البحث، واحداً من أهم الدراسات التاريخية التي نشرت حول العراق الحديث، وربما حول أي بلد آخر في المشرق، خلال النصف الثاني للقرن العشرين. ولم تكن أهمية كتاب بطاطو في حجمه فحسب، بل أيضاً في عنايته بالكثير من جوانب الاجتماع والسياسة في العراق الحديث، وتداخل هذه الجوانب وتفاعلها. وبالرغم من تحيزه المنهجي الماركسي، فقد تحول كتاب بطاطو إلى ما يشبه «الإنجيل» لدارسي العراق خلال ربع القرن الأخير، بحيث يصعب أن تجد عملاً واحداً كتب خلال هذه الفترة بدون أن يستلهمه أو يقع تحت تأثيره، سواء في شكل واع أو غير واع، وبقصد أو بدون قصد.

بيد أن ما عالجه بطاطو في كتابه باعتباره ظواهر مشروطة، وبالتالي مجالاً للنظر والتحقيق، تحول في كتابات لاحقة إلى أيديولوجية مصمتة، بمعتقدات ومسلمات وتاريخ وأساطير. قدمت ريفا سايمون في دراستها لتاريخ العراق السياسي في حقبة ما بين الحربين صورة لوطن ومجتمع ممزقين، تتصارع داخلهما فكرة قومية عربية مصطنعة مع عوامل طرد مركزي سرعان ما ستؤدي إلى انهيار بنيانه الهش. أما حسن العلوي وفرهاد إبراهيم وعلي باباخان، فقد أنشأوا، وبدرجات متفاوتة، عراقاً مختلفاً قليلاً، أسس على قواعد من اضطهاد الأقلية السنية للأكثرية الشيعية، ليس فقط في ظل نظام البعث، بل منذ أقدم العصور. وفي الوقت الذي تحولت فيه المسألة الكردية في العراق إلى حقل كامل للدراسة، أنجزت على أرضه عملية بناء أمة كردية وقدمت من خلال نصوصه مسوغات انفصال الأكراد عن العراق، فقد تزايد الاهتمام بدراسة شيعة العراق باعتبارهم جالية، أو حتى أمة مستقلة عن باقي مكونات العراق البشرية، بل وفي حالة صراع مع سنته.

إن الهدف الرئيس للصفحات التالية هو محاولة قراءة التكوين العربي – الإسلامي لشعب العراق وعلاقته بمسألة الهوية. لن تعالج هذه الصفحات الأكراد والمسألة الكردية بأي قدر من التفصيل، وذلك لخصوصية هذه المسألة وارتباطها بولادة الفكرة القومية في مطلع القرن العشرين من ناحية، ولتشعبها جغرافياً وعلاقتها بنشوء الدولة الحديثة في العراق وتركيا وإيران من ناحية أخرى. وسيقتصر التطرق إلى الأكراد والمسألة الكردية على قليل من جوانب تداخلهما بالشأن العراقي العام. موضوع هذه الدراسة هو العراق كوطن، والعراق العربي على وجه الخصوص، بعناصره البشرية وعشائره، توزع هذه العشائر داخل الجغرافية العراقية وتفرعاتها، والأثر الذي لعبته موجات الهجرات العشائرية في تأسيس عروبة العراق والحفاظ عليها. كما ستدرس هذه الصفحات جذور التنوع الإسلامي الطائفي في العراق، وتاريخ العلاقة بين السنة والشيعة. وستحاول إلقاء بعض الضوء على وضع الطائفة في المجال الإسلامي العراقي، ورؤية المسلمين السنة والشيعة لبعضهما البعض، وعلى حقيقة التصور السائد لعراق منقسم بين جنوب شيعي ووسط وشمال سني. ليست هذه إذن دراسة لتاريخ العراق، بالمعنى التقليدي للتاريخ العام لبلد ما، (فمثل هذا التاريخ يتطلب عملاً أكثر تفصيلاً ودائرة نظر أكثر اتساعاً) بل هي دراسة للسياق التاريخي الذي يكون فيه العراق كما نعرفه اليوم، أو كما نظن أننا نعرفه، وللكيفية التي تشكلت فيها مواريث الهويات محل الجدل في عراق مطلع القرن الحادي والعشرين.

الهويات الغائبة

كان الاعتقاد السائد خلال النصف الأول من القرن العشرين ان الهويات هي جواهر قديمة وأصيلة ومطلقة، وانها قد تغيب فترة من الزمن ولكنها سرعان ما تستدعى من جديد ويعاد إحياؤها. ولكننا اليوم، وبفضل عدد كبير من الدراسات التي قدمت في حقلي التاريخ والعلوم الاجتماعية، ندرك أن الهويات ليست جوهرية ولا أبدية، وأنها نتاج عملية إنشاء تتم في سياق ظروف تاريخية محددة. لا يعني هذا بالضرورة أن كل عناصر الهوية مصطنعة أو متخيلة، بل يعني ان هذه العناصر ذات منشأ تاريخي، وأن الوعي الجمعي بهوية ما، وتحول هذه الهوية إلى أداة حشد وتحرك سياسي، هو منجز تاريخي يتم في ظل ظروف معينة وفي سياقات معينة. كما يعني بالتأكيد أن إنشاء الهوية وتحولها إلى إطار مرجعي للسلوك السياسي هو عملية تتضافر فيها الحقائق والأساطير، استدعاء التاريخ وإعادة قراءته وتفسيره؛ ويتضافر فيها الواقع والمتخيل. وجد العرب، مثلاً، منذ أكثر من ألفي عام؛ ولكن ولادة وعي عربي جمعي بهوية عربية مميزة عن غير العرب، ما يعنيه ان تكون عربياً، وتطور العروبة إلى هوية قومية وحركة سياسية، هي عملية إنشائية تاريخية. وهو ما ينطبق على الهوية الطائفية، الهوية الشيعية أو السنية، كذلك. فقد أخذت هاتان المدرستان الإسلاميتان في التشكل منذ القرنين الثالث والرابع الهجريين على التوالي؛ وإذ خضع محتواهما الفكري لعملية بناء تاريخية، فإن رؤيتهما الذاتية ولعلاقاتهما ببعضهما البعض لا بد ان تقرأ من خلال السياقات التاريخية المختلفة. وهذا الكتاب هو قراءة في هذا التاريخ، تاريخ تكون الهويات موضوع الجدل في عراق مطلع القرن الحادي والعشرين، وفي السياقات التاريخية التي ولدت قوى الوحدة والانقسام في تاريخ العراق.

ولا يعني هذا بالتأكيد الافتراض بأن العراق، باعتباره دولة حديثة بحدود دولية معينة، قد عرف منذ قديم العصور. فالعراق الحالي ولد بعد نهاية الحرب العالمية الأولى، وهي اللحظة التي تقف عندها هذه الدراسة. ولكن تصوراً ما للعراق كوطن غير محدد بمقاييس الشرائع الدولية الحديثة، وكمزاج وثقافة ونزوع سياسي ونمط حياة، قد وجد منذ بداية العهد الإسلامي على الأقل. وهذا العراق، بساحته البشرية والفكرية والسياسية، بدوله وعشائره، بدوره في دفاعات المنطقة وصراعاتها، بقياداته واستهدافه، بمخزونه الرمزي ووقائعه، هو موضوع هذا الكتاب.

السنة والشيعة في تاريخ العراق

أفرد عبد القاهر البغدادي الإسفرائيني (ت 429 هـ 1037م) في كتابه الشهير «الفرق بين الفرق» فصلاً لبيان أصناف من أطلق عليهم «أهل السنة والجماعة». يشمل مصطلح أهل السنة والجماعة، طبقاً للإسفرائيني، ثمانية أصناف، هم:

1) المتكلمون، أو علماء العقائد، الذين أحاطوا علماً بأبواب التوحيد والنبوة، وأحكام الوعد والوعيد، والثواب والعقاب، وشروط الاجتهاد، والإمامة والزعامة.

2) أئمة الفقه من فريقي الرأي والحديث، ويدخل في هذه الجماعة أصحاب مالك، والشافعي، والأوزاعي، والثوري، وأبي حنيفة، وابن أبي ليلى، وأصحاب أبي ثور، وأصحاب أحمد بن حنبل، وأهل الظاهر، وسائر الفقهاء الذين اعتقدوا في الأبواب العقلية أصول الصفاتية، ولم يخلطوا فقههم بشيء من بدع أهل الأهواء الضالة.

3) الذين أحاطوا علماً بطرق الأخبار والسنن المأثورة عن النبي عليه الصلاة السلام، أي المحدثون.

4) قوم أحاطوا علماً بأكثر أبواب الأدب والنحو والتصريف، وجرَوا على سمت أئمة اللغة.

5) الذين أحاطوا علماً بوجوه قراءات القرآن، وبوجوه تفسير آيات القرآن، وتأويلها على وفق مذاهب أهل السنة، دون تأويلات أهل الأهواء الضالة.

6) الزهاد الصوفية.

7) قوم مرابطون في ثغور المسلمين في وجوه الكفرة، يجاهدون أعداء المسلمين، ويحمون حمى المسلمين، ويذبون عن حريمهم وديارهم، ويظهرون في ثغورهم مذاهب أهل السنة والجماعة.

8) عامة البلدان التي غلب فيها شعار أهل السنة دون عامة البقاع التي ظهر فيها شعار أهل الأهواء الضالة.

عاش الإسفرائيني في نهاية القرن الرابع وبداية الخامس الهجريين، عندما كانت العلوم الإسلامية وفروعها قد نضجت وتبلورت، وعندما كانت عقائد الفرق وأيديولوجياتها قد حددت مقولاتها الرئيسة، وعندما كان وعي أصحاب الفرق بهويتهم قد استقر. إن القائمة بالغة التنوع التي يقدمها الإسفرائيني لمن يعتبرهم أهل السنة والجماعة: الفقهاء، المتكلمون، المتصوفة، اللغويون والنحويون، المجاهدون وأهل الرباط، القراء وعلماء التفسير، وعلماء الحديث، هم أيضا أولئك الذين وضعوا الميراث الكبير الذي مكن للإسفرائيني، وغيره من علماء القرنين الرابع والخامس، من التحدث بوضوح وثقة عن تصور محدد لما يجب أن يكون عليه «أهل السنة والجماعة». وليس هناك من شك، في أن جذور هذا الميراث ترتبط بالفتنة الكبرى والتباين المتزايد بين أجيال المسلمين الأولى، من تابعين وتابعي تابعين، حول رؤية أحداث الفتنة وأطرافها وأبطالها الرئيسين، وحول ما نجم عنها من تداعيات وانقسام في صفوف الجماعة المسلمة. إن المقولات التي تبلورت بعد ذلك لدى من اعتبروا أنفسهم «أهل السنة والجماعة» تظهر الاتساع الكبير للدائرة التي سيؤسسون عليها ميراثهم.

يقول أهل السنة، كما يتضح في نصوص المعبرين الرئيسين عن وجهة نظرهم منذ النصف الأول للقرن الثالث الهجري، بعدالة الصحابة جميعاً، ويعتقدون بأنهم معاً، كجيل، خير الناس. ولكن ارتباط مفهوم الصحبة بالنبي، صلى الله عليه وسلم، ومحدودية وتباين الروايات التي نقلت وجهات نظر الصحابة، يجعل من الصعب أن تساعد صورتهم أو الموقف منهم في إيضاح تصور أهل السنة لأنفسهم ولميراثهم. الجيل التالي للصحابة، جيل التابعين، كان أكثر تنوعاً، سواء من ناحية الدور الذي لعبه في أحداث الفتنة الكبرى وما تلاها من ثورات وانقسام وجدل، أو وجوده خارج دائرة الكاريزما (Charisma) والقداسة المنبعثة من مفهوم صحبة النبي، صلى الله عليه وسلم، أو حتى من ناحية توفر صورة أكثر وضوحاً لآراء ومواقف شخصياته. وتقدم كتب الطبقات والرجال والمحدثين، منذ بداية عصر التدوين حتى ظهور الكتابة الموسوعية في العصر المملوكي، رؤية بالغة الثراء والتنوع لمن اعتبرهم أهل السنة والجماعة المؤسسين لميراث الإسلام في جيل التابعين وتابعي التابعين، ممن تحملوا العلم ونقلوه إلى الأجيال التالية.

وتشير هذه الصورة بالغة التنوع لجيل التابعين الى دلالات هامة في رؤية «أهل السنة» لأنفسهم ولجذورهم التاريخية. إن تصور أهل السنة، أولاً، للإسلام هو تصور تفاؤلي، يسمح بقدر واسع من الاختلاف، ويعتقد بإمكانية الخلاص الإنساني حتى في ظل هذا الاختلاف. ولكن هذا الاختلاف، ثانياً، ليس اختلافاً بلا حدود، بل هو اختلاف يدور حول خط وسطي سيتبلور تدريجياً منذ عصر التابعين إلى أن اتضحت المفاهيم الأساسية لمن اعتبروا أنفسهم «أهل السنة». ويعني هذا، بالتالي، أن دلالات ما اعتبره المتكلمون وعلماء الحديث من أهل السنة، تشيعاً، أو إرجاء، أو قولاً بالقدر، أو ربما حتى خروجاً، في الأجيال الأولى للمسلمين، لم يأخذ بعد صيغته الأيديولوجية المتأخرة، وكان في جوهره تعبيراً كلامياً بسيطاً عن وجهات نظر سياسية. الدلالة الثالثة، أن الحدود الفاصلة بين تلك الآراء لم تكن حدوداً أيديولوجية قاطعة، وكان ممكناً بالتالي أن تجد خارجياً بتوجهات إرجائية، أو متشيعاً يصطف إلى جانب عبد الله ومصعب ابني الزبير في محاولتهما الإطاحة ببني أمية1، وربما كانت هذه الطبيعة الأولية للآراء والتوجهات، والتداخل بينها، هو ما جعل كتاب الفرق في القرن الثالث الهجري يختلفون في تصنيفهم للمسلمين الأوائل. فبينما نجد ابن قتيبة (ت276هـ/889م)، على سبيل المثال، يضم التابعي الكوفي الكبير سفيان الثوري إلى الشيعة الأوائل، وأغلبهم مقبول من أهل السنة، نجد الحسن بن موسى النوبختي (ت بين 300 و310هـ/ 912 و922م)، في الكتاب المنسوب إليه «فرق الشيعة»، الذي كتب عند بدء تبلور التشيع الإثني عشري، يعتبر سفيان من المرجئة.

خلف هذه الرؤية التفاؤلية للإسلام ومصير الإنسان، وخلف هذه الدائرة الواسعة من التعدد، كان هناك تيار اعتدالي وسطي أخذ ينمو باطراد منذ نهاية القرن الأول الهجري، وهو الذي أدى في النهاية إلى بروز «أهل السنة والجماعة». ما أعطى هذا التيار نزعته الاعتدالية الوسطية كان إصراره الحثيث على وحدة الجماعة. وربما تعود جذور هذا التيار إلى الحسن البصري وابن سيرين وسفيان بن عيينة وأمثالهم، وبالتأكيد إلى عبدالله بن المبارك ووكيع بن الجراح ويزيد بن هارون والأوزاعي وأبي إسحاق الفزاري، ممن جاؤوا بعدهم. ولكن هذا التيار لم يتطور خلال القرن الثاني الهجري على نحو أيديولوجي مغلق وقطعي. فبينما كان إبراهيم النخعي الكوفي مفضلاً لعلي ومعادياً للمرجئة الأوائل، فإن حماد بن أبي سليمان، الكوفي أيضا، كان مرجئاً بالمعنى المبكر للإرجاء، وكذلك كان تلميذه أبو حنيفة، الكوفي هو الآخر (ت150هـ/767م) والذي أضاف إلى ميوله الإرجائية تأييده لخروج زيد بن علي بن الحسين (ت 740/122) على بني أمية. كانت التوجهات الغالبة لحركة الفكر والسياسة الإسلامية خلال السنوات القليلة السابقة لانهيار الحكم الأموي في 132هـ/750 قد أصبحت معادية للأمويين، ولكن ذلك لا يعني بالضرورة ان الآراء والمواقف السياسية لأولئك الذين اعتبروا فيما بعد الآباء المؤسسين لميراث أهل السنة والجماعة قد أصبحت متطابقة. إن تأييد أبي حنيفة لخروج زيد بن علي كان مخالفاً لولاء عبد الرحمن الأوزاعي (ت 157هـ/774م) للأمويين. ومن المرجح أيضاً ان أبا حنيفة، ومحمد بن الحسن الشيباني (805/189)، وأبا يوسف (192هـ 808م)، ومالك بن أنس (ت 179هـ 796م)، ومحمد بن إدريس الشافعي (ت204هـ/820)، قد قبلوا جميعا شرعية الخلافة العباسية، التي ارتفعت على أنقاض الأمويين والتي ولدت من جذور شيعية أيضاً، وإن لم تكن علوية.

ولا بد أن ينظر إلى إسهام الشافعي باعتباره إسهاما رئيساً في نمو الميراث الفكري لأهل السنة. فقد وضع الشافعي للمرة الأولى تصوراً واضحاً لمصادر الدين والشرع، محدداً تلك المصادر بالقرآن والسنة والإجماع والقياس (الذي ساوى بينه وبين الاجتهاد)، وجادل بأن المقصود بالسنة هو سنة النبي صلى الله عليه وسلم، وليس أي سنة أخرى، وهو ما سيصبح الموقف المجمع عليه لمن سيعرفون أنفسهم بأهل السنة والجماعة. كما قدم الشافعي من خلال مبدأ الإجماع إطاراً مرجعياً صلباً للرؤية التي ستسود أوساط أهل السنة، بعد سنوات قليلة من وفاته، لحقبة التأسيس السياسي الإسلامي ولما تركته الفتنة الكبرى من آثار عميقة على تصورات المسلمين السياسية والعقدية. من خلال مبدأ الإجماع، أصبح من الممكن الإعلان بأن ترتيب الخلفاء المسلمين الأوائل في الفضل، أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، هو مثل ترتيبهم في الخلافة، وأن الخلافة كانت موضع اختيار ولم تكن موضع نص. لقد أسس مبدأ الإجماع لشرعية تاريخ الجماعة في الحقبة المدنية كما تجلى ذلك التاريخ بالفعل، وترك ما وراء تلك الحقبة مجالاً حراً لاختلاف الرأي. من جهة أخرى، استبطن مبدأ الإجماع، حصر حراسة الدين والشريعة بدائرة العلماء، كون المقصود بالإجماع إجماع العلماء، واستبطن بالتالي منع الدولة من التدخل في تحديد مسائل الدين والشريعة. وهذا ما سيتجلى بالفعل في المسيرة التاريخية الإسلامية حيث ستواجه الدولة، كلما نزعت لفرض رؤيتها للدين والشريعة، معارضة صلبة في دوائر العلماء والفقهاء.

نجد الإشارات الأولى لمصطلح «أهل السنة» في بدايات القرن الثالث الهجري، وهو ما يدلل على تبلور أيديولوجي محدد، ووعي ذاتي لدى قطاع واسع من العلماء. هذه هي فترة خلافة المأمون (حكم من 198هـ/813 ـ 218هـ 833م) وسعيه إلى فرض مسألة خلق القرآن وتصور المعتزلة الأوائل لصفات الله عز وجل على الجماعة المسلمة. وقد أورد الطبري في تاريخه نص رسالة كتبها المأمون ينتقد فيها رجالاً نسبوا أنفسهم إلى السنة وادعوا أنهم «أهل الدين والحق والجماعة». ويعزو القاضي أبو الحسين محمد بن أبي يعلى في طبقاته إلى أحمد بن جعفر الأصطخري روايته نصا طويلا لأحمد بن حنبل (164هـ/780 ـ 241هـ/855)، سيعرف فيما بعد بعقيدة أحمد بن حنبل، يقول في مطلعه «هذه مذاهب أهل العلم وأصحاب الأثر وأهل السنة المتمسكين بعروقها ....»، ويقول في موقع آخر «وهذه المذاهب والأقاويل التي وصفتُ مذاهب أهل السنة والجماعة والآثار...».

المحنة واهل السنة والجماعة

إن من الضروري التذكير بأن مصطلح «أهل السنة والجماعة»، ومن ثم تبلور تصور مرجعي لما يدل عليه هذا المصطلح، قد ارتبط بالمحنة، محنة سعي المأمون لفرض القول بخلق القرآن على العلماء والفقهاء وأهل الحديث والقضاة. راودت المأمون فكرة إمضاء مسألة القرآن ولعن بني أمية في السنوات الأولى من توليه الخلافة، ولكن البداية الحقيقية للمحنة تعود إلى شهور قليلة قبل وفاة المأمون. بل إن الرسالة التي يدرجها الطبري والتي تضمنت تهديد المأمون لمن أسماهم أهل السنة والجماعة، هي ذات الرسالة التي كتبها المأمون من محل إقامته في الرقة آنذاك إلى نائبه في بغداد اسحاق بن إبراهيم يأمره فيها باستدعاء العلماء والفقهاء والمحدثين والقضاة لامتحانهم فيما أصبح مذهب الدولة الرسمي. إن تمتع المعتزلة الأوائل بصلات وثيقة مع الخلفاء العباسيين، لا سيما أبو جعفر المنصور وهارون الرشيد، هو أمر مؤكد، لكن أحداً من خلفاء بني العباس لم يحاول فرض مذهب معين على الجماعة المسلمة، علماء أو رعية، إلى ان بادر المأمون إلى ذلك. هذا التاريخ من التعاطف العباسي المبكر مع متكلمي المعتزلة يفترض أن المأمون كان واعياً تماماً بوجهة النظر المعارضة للمعتزلة وعارفاً أصحاب وجهة النظر تلك، أو على الأقل رؤوسهم. ولذلك فإن من الصواب، ربما، الاستنتاج بأن عبارة «أهل السنة والجماعة» الواردة في رسالة المأمون إلى إسحاق بن إبراهيم كانت عبارة محددة الدلالة. من ناحية أخرى، فإن القاضي ابن أبي يعلى يعرف أحمد بن جعفر الأصطخري بأنه كان أحد أصحاب أحمد بن حنبل، بالرغم من أنه لا يقدم معلومات إضافية حول شخصيته. ولكن غموض شخصية الأصطخري لا يجب أن يستدعي بالضرورة نفي صحة روايته لمذهب أحمد الاعتقادي حتى إن كان من الصعب الجزم بالصحة الحرفية للنص، لا سيما ان هناك توافقاً واضحاً بين استخدام المأمون لمصطلح «أهل السنة» في وصفه لمعارضيه واستخدام أحمد بن حنبل المصطلح ذاته للدلالة على أولئك الذين حملوا لواء المعارضة للمأمون. بل إن أحمد بن حنبل كان على رأس أولئك المعارضين، وحامل لوائهم، ومن ارتبط اسمه بكل حلقات المحنة منذ بدايتها وحتى نهايتها وإقرار الدولة بالهزيمة. ويمكن الافتراض بالتالي أن عقيدة أحمد بن حنبل كما أوردها ابن أبي يعلى، تمثل أول نص متكامل لأيديولوجية من سيعرفون منذ الآن بأهل السنة والجماعة. ويعود محمد حامد الفقي، محقق طبقات ابن أبي يعلى، إلى إيراد نصين لعقيدة أحمد بن حنبل في نهاية الجزء الثاني من الطبقات. الأول من رواية أبي محمد بن تميم الحنبلي (ت488هـ/1095)، وقد استل من مخطوطة لكتاب «الكواكب الدراري» لابن عروة، والثاني من إملاء أبي الفضل عبدالواحد بن عبدالعزيز بن الحارث التميمي (ت410هـ/1020)؛ وكلاهما متأخر، مما يرجح كفة النص المبكر الذي ينسبه إبن أبي يعلى للأصطخري، بالرغم من أن الخلافات بين النصوص الثلاثة ضئيلة.

كان أحمد بن حنبل، طبقا للإصطخري، في رواية ابن أبي يعلى، يرى أن قوله هو «مذهب أهل العلم وأصحاب الأثر، وأهل السنة المتمسكين بعروقها، المعروفين بها، المقتدى بهم فيها، من لدن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى يومنا هذا ..» وكان يرى أن الإيمان قول وعمل ونية، وتمسك بالسنة، والإيمان يزيد وينقص .. والقدر خيره وشره، وقليله وكثيره، وظاهره وباطنه، وحلوه ومره، ومحبوبه ومكروهه، وحسنه وسيئه، وأوله وآخره، من الله». وكان يقول: «ولا نشهد على أحد من أهل القبلة أنه في النار لذنب عمله، ولا لكبيرة أتاها، إلا أن يكون في ذلك حديث، كما جاء على ما روي فنصدقه، ونعلم أنه كما جاء». وكان لا يقول بالخروج على السلطان، وإن أمر السلطان بأمر هو لله معصية، فليس له طاعة البتة. وكان يقول بأن القرآن كلام الله، ويثبت لله صفاته، وأن ليس كمثله شيء، وأن على المسلم «ذكر محاسن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم أجمعين، والكف عن ذكر مساويهم والخلاف الذي شجر بينهم». وأن «حبهم سنة، والدعاء لهم قربة، والاقتداء بهم وسيلة، والأخذ بآثارهم فضيلة.» وكان أحمد يرى بأن «خير الأمة بعد النبي صلى الله عليه وسلم: أبو بكر، وعمر بعد أبي بكر، وعثمان بعد عمر، وعلي بعد عثمان. ووقف قوم على عثمان. وهم خلفاء راشدون مهديون» وكان يقول بأن على المسلم أن يعرف للعرب حقها وفضلها وسابقتها ويحبهم، لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: حبهم إيمان، وبغضهم نفاق، ولا يقول بقول الشعوبية وأراذل الموالي الذين لا يحبون العرب، ولا يقرون لهم بفضل، فإن لهم بدعة ونفاقاً وخلافاً. وكان أحمد بن حنبل يرى أن «الجهاد ماض قائم مع الأئمة، بروا أو فجروا، لا يبطله جور جائر، ولا عدل عادل».

ثمة بعض من الدلالات الهامة التي يطرحها هذا النص. فإن كان لنا أن نعتبر مقولات ابن حنبل أول طرح متماسك، متعدد الأبعاد، لما يعتقده أهل السنة، فالواضح أن هذه المقولات قد عبرت عن الاتجاه العام، الاتجاه الأغلب، لأجيال التابعين وتابعي التابعين، بغض النظر عن آرائهم السياسية. ما تركته عقيدة ابن حنبل جانباً أو ما رفضته صراحة، كانت مقولات الغلاة من كافة الفرق السياسية. إضافة إلى ذلك، فإن تبلور تصور أهل السنة لأنفسهم قد جرى في مواجهة الدولة وليس استجابة لها. هذا بالرغم من أن أحمد بن حنبل (وسيتبعه أهل السنة بعد ذلك) يرفض الخروج بالسيف على الحاكم. هذا التبلور، أيضاً، جرى في مواجهة التطرف الاعتزالي، وليس في مواجهة التشيع مهما كانت توجهاته المختلفة آنذاك. بل إن الفرق الشيعية الرئيسية (الزيدية والاثني عشرية والإسماعيلية) لم تكن قد نضجت بعد كفرق ذات محتوى أيديولوجي واضح المعالم في مطلع القرن الثالث الهجري. لقد استمرت المحنة منذ العام الأخير لخلافة المأمون وطوال عهدي المعتصم والواثق، وانتهت في عهد المتوكل (حكم 232هـ/847 ـ 247هـ/861)، الذي وضع حداً للمحنة. هنا، مع المتوكل، ربما، يمكن القول بأن الخلافة العباسية قد أخذت في الانحياز لموقف أهل السنة والجماعة، وهو ما لا يمكن قوله عن الخلفاء السابقين، من أبي عبد الله السفاح وأبي جعفر المنصور حتى الواثق، الذين أظهروا جميعا ميولاً اعتزالية أو تبنياً للاعتزال بدرجات متفاوتة. هذا فوق أن تصور أهل السنة لم يكن قد تحدد بشكل واضح وصريح المعالم في العصر العباسي الأول.

خلال النصف الثاني للقرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) والقرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)، تعزز موقف أهل السنة بفعل عدة تطورات هامة. فقد نشأت المذاهب الفقهية من مجموعة آراء غير محددة دائماً، أو أولية، إلى مدارس واضحة الآراء ومناهج استنباط. ونزعت أربعة من هذه المذاهب (الشافعية والمالكية والأحناف والحنابلة) إلى تبني التوجه العام لأهل السنة والجماعة. يقسم ابن النديم (377هـ/487ـ 488) الفقهاء إلى مالكية، أصحاب أبي حنيفة، أصحاب الشافعي، أصحاب أبي داود الظاهري، أصحاب الحديث وفقهاء المحدثين، أصحاب الطبري، فقهاء الشيعة وفقهاء الخوارج. وقد استمر وجود وتطور الفقه الشيعي، بمدارسه المختلفة، ومثله فقه الخوارج، ولكن ما أن حل القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) حتى كان المذهب الظاهري، ومذهب الإمام الطبري قد أخذا في التلاشي. أما فقهاء المحدثين فقد انضوى أغلبهم تحت لواء المذهب الحنبلي. وتعزز موقف أهل السنة كذلك بتبني أغلب المتصوفة المؤسسين، منذ نهاية القرن الثالث الهجري، للتوجه السني العام، إضافة إلى الازدهار البالغ في علوم القرآن وتفسيره، في اللغة وعلومها، في الحديث وعلومه، وفي الكتابة التاريخية، داخل الدائرة المتسعة دائماً التي أصبحت تعرف باسم «أهل السنة والجماعة». هذا الاتساع والتنوع هو الذي شكل الفضاء المعرفي الذي كتب فيه الإسفرائيني (ت429هـ/1037) نصه المشار إليه أعلاه، والذي قدم صورة بالغة التعدد لأهل السنة. ولكن من الضروري التذكير دائماً أن تبلور وعي أهل السنة بأنفسهم، وتبلور اتجاهاتهم، قد أنجز أساساً وأصلاً في المجال العقدي/الكلامي وليس في مجال الفقه أو التصوف أو التفسير. ومن المؤكد أنه في منتصف القرن الثالث الهجري، عندما أصبحت آراء أحمد بن حنبل موضع استقطاب سني، لم تكن المدارس والآراء الفقهية قد أصبحت مذاهب ثابتة بعد. وقد لعب أبو الحسن الأشعري (260هـ/875 ـ 324هـ/939) دوراً رئيساً في إنضاج المقولات السنية في المرحلة التالية لأحمد بن حنبل.

ابو الحسن الاشعري ومقالات الاسلاميين

قدم الأشعري في «مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين» مسحاً موضوعياً شاملاً لتوجهات الفرق ومذاهب المتكلمين في عصره، مع إعطاء نبذة موجزة فقط عن تطورها التاريخي. ولا يكاد موقف الأشعري ذاته يتضح من القضايا محل النزاع إلا عندما يذكر ذلك على نحو محدد. وهنا أيضاً كان نصه موجزاً وسريعاً. ولكن الاشعري يكرس كتابه «الإبانة عن أصول الديانة»، الذي يعتقد بأنه آخر نصوصه، كله تقريباً لتفصيل ما يراه بأنه مذهب أهل السنة والجماعة. ولا يكاد الأشعري يخرج عن موقف أحمد بن حنبل، بل إنه يؤكد على أن «قولنا الذي نقول به وديانتنا التي ندين بها: التمسك بكتاب الله عز وجل، وبسنة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وما روي عن السادة الصحابة والتابعين وأئمة الحديث ونحن بذلك معتصمون، وبما كان يقول به أبو عبد الله أحمد بن محمد حنبل، نضر الله وجهه ورفع درجته وأجزل مثوبته ، قائلون، ولما خالف قوله مخالفون .. .» ولكن نص الأشعري جاء أكثر تفصيلاً ووضوحاً من نص أحمد بن حنبل، معززا بالأدلة، ومفعماً بالجدل والردود، مما يشير إلى حدة التدافع الكلامي بين متكلمي أهل السنة ومخالفيهم خلال العقود التالية على وفاة أحمد بن حنبل. وبالرغم من التزام الأشعري بموقف ابن حنبل فقد تقدم (وهو الذي تلقى تدريباً معتزلياً في سني شبابه) برؤية جنينية لمفهوم «الكسب» فيما يتعلق بقضية مسؤولية الإنسان عن أعماله. فيما بعد، سيطور الأشاعرة المتأخرون هذا المفهوم إلى نظرية بالغة التعقيد، وسيصبح «الكسب»، إلى جانب الاختلاف حول الذات والصفات والتأويل ومفهوم الإيمان، محل جدل وافتراق بين الأشاعرة المتأخرين وأولئك الذين استمروا في التزامهم مبادئ الاعتقاد الحنبلي. هذا الاختلاف هو بالطبع ما سيؤسس لتبلور اتجاهين رئيسيين داخل صفوف أهل السنة والجماعة: الاتجاه الأشعري والاتجاه السلفي.

بيد أن من الضروري ملاحظة أن نص الأشعري في تجليه الأخير، كما يتضح في «الإبانة عن أصول الديانة»، كان يستبطن أساساً إيضاح تمايز أهل السنة عن المعتزلة وليس عن أي فرقة أخرى. لقد أصبح واضحاً في مطلع القرن الرابع الهجري أن الخوارج والمرجئة لم يعودوا يشكلون تحدياً خاصاً لجسم الأمة الكبير، الذي انحاز في أكثريته لعلماء وفقهاء ومتصوفة ومتكلمي أهل السنة؛ بينما لم يكن التشيع قد انتظم بعد في مدارس ومذاهب واضحة المعالم. ولكن ذلك لا يعني أن الجدل السياسي ومتعلقاته الفكرية لم يكن حياً. ولعل استمرار الجدل السياسي هو ما يفسر إفراد الأشعري في نهاية كتابه فصلا لتوكيد موقف أهل السنة من خلافة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، وذلك في معرض رده على القول بالنص على إمامة علي (كما عند متكلمي التشيع)، أو النص على إمامة العباس (كما عند متكلمي الراوندية). ولكن متغيراً ما سيطرأ على الخطاب السني في مطلع القرن الخامس الهجري، بعد مرور قرن على وفاة الأشعري، كما سيتضح ذلك في كتاب الإسفرائيني (ت 429هـ/1037) «الفرق بين الفرق»، حيث نجد نصاً أكثر توكيداً على «فضائل أهل السنة» وبيان آثارهم في الدنيا والدين «وذكر مفاخرهم فيهما»، وأكثر جدلاً ونقداً للفرق الشيعية. لقد بدأ التسنن في